صورة المرأة فى كتب المطالعة المدرسية

زينب عباس بدوى

مقدمـــــــة

جاء اهتمامى بموضوع هذه الدراسة من القناعة التامةبخطورة وأهمية الدور الذى تلعبه المدرسة والمناهج المدرسية فى عمليـــة التطوير الفكرى والتغيير الاجتماعى،خاصة فى بلد كالسودان يفتقـــر فيه الطفل الى المؤسسات الثقافية التى تعنى بثقافته من سينمـــا ومسرح وغيرها. ويضع هذا على عاتق هذه المناهج مسئولية كبيرة هى مسئولية التخطيط للمجتمع السودانى الجديد. بالاضافة الى أنّ هـــذه المناهج مناهج موحّدة يتلقاها كل مواطن سودانى ويتأثر بها ممّـــا يجعل العناية بها وبما تحمله من قيم ومفاهيم ضرورية هامّة ولازمة. موضوع هذه الدراسة هو "صورة المرأة فى كتب المطالعة المدرسيـــة" المرحلة الابتدائية والمتوسطة. ونقصد بالمرأة الشخصيات النسائية فى مختلف الأدوار والأعمار وذلك من خلال ظهور هذه الشخصيات فى نصوص هذه الكتب التى يحتوى أغلبها قصص وحكايات قصيرة أو مواد أخرى. ونقصد بصورة المرأة فى هذه الكتب المفهوم الذى تحمله هذه الكتب للمرأة ونظرتها لمساهمة المرأة الانسانية والحياتية بشكل عـــام. ولنبلغ هذه الغاية سنحلّل نصوص المطالعة ومغازيها لنقترب مـــن الأهداف والقيم التعليمية والاجتماعية والتربوية التى ترغب هـــذه الكتب فى نقلها وتوصيلها للتلميذ والتلميذة.

الكتب موضوع الدراسة هى كتب المطالعة الابتدائية للمدارس السودانية "الابتدائى والثانوى العام" وهى كتب قرّرت مـــن وزارة التربية والتعليم بعد السلّم التعليمى،وطبعت طبعاتها الأولى مـــا بين عام ٧٠ الى ٧٢ وظلّت تدرّس منذ ذلك التاريخ والى الآن وإن تعـرّض بعضها لتنقيح طفيف.

وقع اختيارى على كتب المطالعة المدرسية بالتحديد لأهميـــة هذه الكتب خاصة فى المرحلة الابتدائية حيث يعتبر كتاب المطالعـــة الكتاب الأساسى والمدخل لتعليم القراءة والكتابة.[1] وبالتالـــى يكون الكتاب الأول الذى يتعامل معه الطفل بالاضافة للفترة الزمنية

التى يحتلّها تدريس هذه الكتب إذ تستحوذ حصص المطالعة على نصف عدد الحصص المقرّرة لتدريس اللغة العربية خاصة فى الفصول الدنيا (٢) وممّا يجعل لهذه الكتب أهمية أيضا احتواؤها على مواضيع عامّة وغير متخصصة وبالتالى تعرّضها للقيم الاجتماعية والأخلاقية بشكل مباشر أو غير مباشر، (٣) وبالنظر الى أنّها تستعمل فى نقل هذه القيم أساليب متنوعة وعناصر مختلفة من بينها عنصر الترغيب والتشويق واثارة خيال الطفل وغيرها، علاوة على أنّ لكتب المطالعة نافذة يطل منها التلميذ والتلميذة على عالم القراءة والكتب ممّا يجعلها مصدرا لتشكيل ثقافة الطفل ولغته.

وللدلالة على أهمية هذه الكتب نجد أنّ شخصيات كتب المطالعة تترك أثرا قويا فى نفوس التلاميذ. بل اكتسبت بعض هذه الشخصيات وجودا حيا أهّلها لتكون على لسان الأطفال فى حياتهم خارج الفصل من أمثال شخصيات "محمود الكذاب"، "طه القرشى"، "حسن البطل" "هاشم فى العيد". وغيرها من الشخصيات التى خرجت من الكتب واندغمت فى حياة التلاميذ والتلميذات.

سأتناول فى البداية لمحات من وضع المرأة فى التعليم ثم انتقل الى أجزاء الدراسة الأخرى.

وضع المرأة فى التعليم

تعتبر المدرسة التى قامت بمجهود الشيخ بابكر بدرى فى رفاعة عام ١٩٠٧ بداية تعليم المرأة الحديث فى السودان. وقبل هذا التاريخ كانت المرأة فى الغالب الأعم تكتفى بالمعلومات التى تمدها بها العائلة أو المجتمع، حيث يتم اعدادها لتصبح ربة منزل ولها معرفة بتربية الأطفال وتنشئتهم، بينما كان بعض النساء يلم ببعض قواعد الدين واللغة من خلال الخلاوى المنتشرة فى أنحاء متفرقة من السودان. وبالطبع فقد واجهت مدرسة الشيخ بابكر بدرى معارضة شديدة من التقليديين والادارة البريطانية التى حاولت تعطيل قيام مدارس البنات ادراكا منها أنّه كلّما تأخر تعليم المرأة كلّما تمكنت من المحافظة على الوضع المتخلّف فى المجتمع، وبالتالى أمدّت فى عمر الاستعمار (٤)

وقد اهتمت الارساليات المسيحية بتعليم البنات وسمح قليل من

السودانيين لبناتهم بالالتحاق بمدارسها. وظلّ هذا الوضع حتى عام 1911 حيث قامت الحكومة ما بين عامى 1911-1919 بفتح خمس مدارس أولية للبنات فى كلّ من رفاعة والكاملين ودنقلا ومروى والأبيض. ولم تكن فى الخرطوم أو أمدرمان مدرسة حكومية للبنات حتى عام 1921 الذى افتتحت فيه مدرسة للبنات ملحقة بكلّية المعلمات.(٥)

أمّا فى الجنوب فقد فتح الاستعمار الباب واسعا أمام الارساليات المسيحية لتسيطر على تعليم المرأة، وذلك بهدف ابعاد الجنوبيين عن الثقافة العربية الاسلامية. وقبل عام 1925 لم تكن هنالك مدارس أولية للبنات فى الجنوب ولكن فى بداية الثلاثينيات افتتحت الارساليات مدارس أولية للبنات، ولم يعين مفتش لتعليم البنات فى الجنوب إلاّ فى عام 1946 تقريبا. وكدليل على عدم الاهتمام بتعليم المرأة فى الجنوب فانّه حتى عام 1956م لم تكن هنالك مدرسة ثانوية للبنات فى الجنوب بينما كانت هنالك مدرسة متوسطة واحدة (٦)

وبالطبع فانّ الاعتبارات الاقتصادية والسياسية كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لدوافع الاستعمار تجاه تعليم المرأة. فتبرير الحكومة عدم تشجيعها لقيام مدارس للبنات انبنى على حجّة الأنوثة والحفاظ على التقاليد الاسلامية بينما كان أصل المسألة هو مفهوم الحكومة الضيق للتعليم الذى صمّمته لخدمة أهداف ليس للمرأة فيها أى دور. وكدليل على ذلك فانّ المذكرات المتبادلة حول مسألة التعليم خلال السنوات الأولى للحكم الاستعمارى لم يرد فيها ذكر لمسألة تعليم المرأة. بل إنّ مضمون ومحتوى مناهج مدارس البنات كان ذا مستوى أكاديمى أقل من مدارس البنين واحتوى بشكل أساسى على دروس فى التدبير المنزلى والخياطة والتطريز !!(٧) وقبل عام 1956 كان تعليم المرأة يسير بطيئا حيث افتتحت أول مدرسة وسطى حكومية للبنات عام 1940، وافتتحت أول مدرسة ثانوية عام 1945م.(٨) أمّا بعد عام 1956 فقد أولت الحكومات الوطنية المتعاقبة اهتماما بتعليم المرأة وتمثل هذا فى ازدياد مدارس البنات بمراحلها المختلفة، وازدياد عدد الطالبات والخريجات من المدارس والجامعات. ومع هذا التوسع الكمّى لتعليم المرأة صحّ أن نسأل: هل تغيّر محتوى التعليم ومناهجه بشكل يواكب الزيادة فى تعليم المرأة ويؤهل

المرأة السودانية للقيام بدور حقيقى فى المجتمع ؟

صورة الدور الاجتماعى للمرأة

بتناولنا للنماذج النسائية المقدمة فى نصوص هذه الكتب يمكننا أن نقول إنّ هذه الكتب تقدّم صورة وحيدة الجانب للمرأة ولدورها ولمشاركتها الاجتماعية وهى صورة المرأة "ربّة البيت" المحصورة فى داخل الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال. ويمكن أن نلمس هذا الفهم بوضوح فى درس بعنوان "الأم" (٩) حيث ورد الآتى:-

(الأم هى ربّة البيت ،تقوم بادارته ونظامه. فهى بذوقها وحسن ادارتها ،تنشر المحبّة بين أفراد الأسرة ،وهى بحسن تربيتها تجعل من بيتها مكانا تتوافر فيه أسباب الراحة. فكما أنّ الرجل يعمل طوال النهار فى مكتبه ،أو مصنعه أو متجره ،أو حقله ليتحصل على قوت أسرته كذلك نرى الأم تقوم بكلّ واجبات البيت من طبخ ونظافة وتطريز. والأم المتعلّمة ربّة بيت صالحة ،تجيد معاملة زوجها وتحسن رعاية أطفالها وتسهم بأكبر قدر فى تربيتهم ليكونوا مواطنين صالحين يعملون لخير بلادهم وتقدمها .....)

يلاحظ أنّ هذا الدرس قد عرّف "الأم" بأنّها "ربّة البيت" أى التى تقوم بأعمال المنزل بل وخاض الدرس فى تفاصيل العمل المنزلى الذى تمّ تخصيصه للمرأة وذلك بذكر الطبخ والنظافة والتطريز.

فالصورة المقدمة فى هذا الدرس للمرأة هى صورة تقليدية ومحدودة وهى تحصر دور المرأة فى القيام بالأعمال المذكورة فى الدرس .ومع أنّ مفهوم "الأم" لا يتطابق حرفيا مع مفهوم (المرأة) إلاّ أنّ الدرس قسّم الأدوار بين الرجل والمرأة (الأم) بشكل واضح حيث قارن بين عمل المرأة فى البيت وعمل الرجل خارج البيت ،ولم يقف الدرس عند هذا الحد بل ذهب أكثر من ذلك حيث ربط بين تعليم المرأة نفسه وبين إحسانها دورها كأم . فهدف التعليم هنا ليس تطوير ملكات المرأة كانسان له قدرات متعددة بل وسيلة لاجادة دورها المرسوم سلفا وهو العمل المنزلى. وقد جاءت الاسئلة والمناقشة فى نهاية الدرس لترسيخ نفس المفاهيم التى أراد الدرس توصيلها. وهنا يكون الأمر مزعجا لأنّ مثل هذه الأسئلة ممّا يهدف منه عادة الى اختيار مدى الخبرة التى تراكمت من خلال الدرس وتثبيت هذه الخبرة فى نفس

الوقت . فقد ورد فى ذيل الدرس السؤالان :(من هى الأم الصالحة؟وما هى أهم الأعمال التى تقوم بها؟)

وسارت كثير من دروس هذه الكتب على نفس المنهج ومن ذلك درس بعنوان (هوايتى)[١٠] ففى هذا الدرس نجد أنّ الأسرة التى تتكوّن من ثلاثة أبناء وابنة هى (عزّة) قد اجتمعت لمناقشة هوايات الأبناء واختيارهم للنشاطات المدرسية. وبينما اختار (أحمد) هواية الرسم، واختار (زهير) القراءة ،واختار (أيمن) هواية الموسيقى،نجد أنّ كاتب النص قد اختار للابنة (عزّة) هواية الاشتراك فى"جمعية الصحة" المدرسية. وأثار اختيار عزّة هذا جدلا بينها وبين والدتها التى كانت ترى ضرورة اشتراك عزّة فى جمعية "التدبير المنزلى". ويتضح هذا من خلال الحوار الذى دار فى الدرس على هذا الوجه :-

الأم: وانت يا عزّة أى هواية فضلت ؟

عزّة: إنّنى منذ العام الماضى فى جماعة الصحّة التى تشرف عليها مدرّسة العلوم.

الأم: كنت أحبّ يا عزّة أن تتعلّمى التدبير المنزلى،فهذا واجب البنت أولا.

عزّة: إنّ حاجة البنت الى التمريض لا تقلّ عن حاجتها الى التدبير فهى تتعلّم طرق الوقاية ،وتوّمن بفضل النظافة على الانسان ومكانة الصحة فى سلامة المواطن،وقوّته العقلية والبدنية. وساعدّ فى بيتنا صيدلية صغيرة وسيشترى والدى الأشياء الضرورية لها.

الأب : هذا عظيم يا أم عزّة ،ولا يمنع ذلك من اشتغالها بالتدبير بل يساعد على تهيئة الجو الصحّى السليم فى البيت .

الأم: إذا كان بجانب التدبير المنزلى فلا مانع.

إنّ صورة دور المرأة الاجتماعى المقدّمة فى هذا الدرس هى صورة المرأة "ربّة البيت" أيضا. فقد حدّد الدرس بوضوح أنّ هواية البنت يجب أن تكون التدبير المنزلى وذلك باعتباره الواجب المقدّم للمرأة الذى يجب أن تتراجع أمامه كل الأعمال والواجبات الأخرى.

وغير خاف على أحد أنّ هذا النّص بصورته السابقة يصادر طموح التلميذة الصغيرة فى أن تهتم وتطوّر اهتماماتها بأى من الهوايات

الأخرى التى وردت على لسان أشقائها كالقراءة والموسيقى والرسم مثلا. والحوار الذى شارك فيه كلّ من الأم والأب والابنة أراد إقناع الأخيرة أنّ هذه المجالات ليست مجالاتها. كما ويرسّخ الدرس فى التلميذة الصغيرة عجزها عن مجرّد طرق هذه المجالات ،ودليلنا على ذلك إقرار عزّة نفسها بأنّ مهمتها الأولى هى تعلّم التدبير المنزلى وأنّ الاشتغال بجمعية الصحّة نفسه يمكن أن يوظّف لخدمة ذلك التدبير البيتى. ويوحى هذا النّص أنّ البنت وحدها غير قادرة على الاختيار. فقد هبّت الأم مسرعة لمساعدة عزّة حتى تعدّل اختيارها لهوايتها، الشىء الذى لم يتم مع الآخرين "الأولاد". وجدير بالذكر بأنّ الحوار الأسرى كان يدور حول الهوايات والمعروف أنّ الهواية من الأمور التى لا تخضع لقرارات خارجية أو مشاورات . جاءت الأسئلة والنقاش فى نهاية الدرس لترسيخ المفاهيم التى رمى اليها. فجاء سؤال "لماذا اختارت عزّة جماعة الصحّة؟ ولماذا اعترضت الأم ؟!!

ونجد هذا التأهيل للبنت لكى تكون ربّة منزل فحسب فى درس آخر من نفس الكتاب بعنوان "ابنتى العزيزة".(١١) ففى الدرس تكتب أم رسالة الى ابنتها تحدّثها فيها عن صفات صديقة قديمة لها وتحثها وتطالبها بأن تتمثل بهذه الصفات فتقول:-

الأم لابنتها:"كنت أراها فى دارها،كما فى المدرسة كلّها هدوء واتزان وأدب ،وكانت تساعد أمّها فى كثير من الأعمال المنزلية ،فكانت أمّها تشفق عليها حينما تراها تجهد نفسها فى أعمال متعبة فتطلب اليها أن تخلد الى الراحة بعض الشىء وأن تعنى بصحّتها وراحتها - قبل كل شىء - فتكف عن ذلك طاعة لأمّها لا رغبة فى الرّاحة والسكون".

هذا النّص أيضا يقول أنّ العمل الأساسى للبنت هو العمل المنزلى،فالنّص يوحى للتلميذة الصغيرة بأنّ البنت النموذجية هى المنهمكة فى الأعمال المنزلية. فهو يعرض للتلميذات هذه البنت المتفانية كنموذج يجب احتذاؤه وتقليده. كذلك نلاحظ أنّ النّص يضخم الأعمال المنزلية لتصبح عالما كاملا تتحرّك داخله البنت .

ويمضى نفس الدرس قائلا:"وحينما يأتى والدها الى البيت نهرع "البنت المتفانية فى تدبير المنزل"الى استقباله ،وتكون رهن اشارته ولا تنصرف من لدنه حتى يصرفها هو،وكذلك تفعل مع أخيها الكبير،

أمّا عطفها على أختها الصغيرة فحدّثي عنه ولا حرج. كل ذلك وهي لا تنسى واجباتها المدرسية، وأكثر من ذلك، فقد خصّصت شيئا من وقتها للرّياضة في البيت، والتدريب على الخياطة والتطريز وادارة المنزل".

إنّ أميز ما في هذه الفقرة هو توكيدها للتمييز بين البنت والولد وإشعار الطفلة الصغيرة بدونية وضعها كبنت، فقد ورد بالفقرة أنّ البنت لا تنصرف عن خدمة أخيها الكبير. وبالطبع لم تكن صدفة أن يضع النّص شخصية الأخ الأكبر وليس الأخت الكبرى مثلا في موضع الخدمة. وفي سبيل إقناع الطفلة الصغيرة وإشعارها بأهمية القيام بالأعمال المنزلية يلوى الدرس عنق الحقيقة، فقد وردت في الدرس أعمال متعدّدة تقوم بها البنت وهي أعمال يصعب بل يستحيل الجمع بينها في الواقع. كما يمهّد النّص الطفلة الصغيرة لتقبل بازدواجية الدور الملقى على عاتقها، فهو يطالبها بأداء الأعمال المنزلية المتعددة وأداء دروسها في نفس الوقت وكأنّما ازدواجية الدور والواجبات هو قدر المرأة سواء أكانت طفلة صغيرة أم امرأة ناضجة.

والاتجاه لتكريس البنت في البيت واضح في "كتابي الأول" وهو الكتاب الذي يدرّس في الصف الأول الابتدائي حيث نجد درسا بعنوان "أمل في البيت"(١٢) جاء فيه ما يلي:-

١) أمل درست ورجعت
٢) وغسلت اليد وأكلت
٣) وعملت مع الأم
٤) ولعبت مع الأخ ومع الأخت
٥) وفرحت الأم
٦) وشكرت أمل

ركز هذا الدرس على تعليم الفتاة شئون العمل المنزلي منذ نعومة أظافرها. فالتلميذة التي وجّه لها هذا الخطاب هي تلميذة بالصف الأول الابتدائي ولا يتعدّى عمرها بأي حال من الأحوال السابعة، ومع ذلك فهي مطالبة بالعمل المنزلي والعناية بأخوانها واخواتها الصغار. ولمزيد من الاشعار بأهمية هذا الدور فقد ربط الدرس بين القيام بهذه الأعمال ورضا الأم.

فالدرس يطالب الطفلة الصغيرة ،ذات السبعة أعوام ،بالخروج من طفولتها وتقمّص دور " الأم" ،علما بأنّ دروس نفس الكتاب ، أو الكتب الأخرى، لا تذكر أى دور للولد فى المنزل. بل تربط هذه الكتب ذكر الأولاد باللعب والانطلاق وغيرها من النشاطات التى حرّمت على البنت . فاللهو واللعب ليس حقا للفتاة الصغيرة !.ففى درس بعنوان " البنت التى تساعد أمّها ،[١٣] جاءت الأهزوجة التالية :-

إنّى أساعد أمّـــــى فى البيت فى كلّ يـوم
أقضى لها مـــا أرادت فى الصبح أو قبل نومى
ولست أمضى للهـــوى حتى أساعد أمّـــى

ومن الملاحظ أنّ الكتب تنوّع فى الأشكال والأساليب التى توصّل بها فكرتها الأساسية للطالب . فهنا استعمل الكتاب القالب الشعرى تسهيلا لهضم الفكرة التى تقول إنّ البنت مخصوصة بالعمل المنزلى.

ويلمح القارىء لهذه الكتب أيضا التصعيد الواضح لنغمة ربط البنت بالمنزل كلّما تقدّمنا فى الفصول الدراسية. وتبلغ هذه النّغمة قمّتها فى المرحلة المتوسطة ،وهى المرحلة المهمّة فى تكوين شخصية الانسان وبداية تحسّسه وتلمسّه لطريقه ومنهجه فى الحياة. ففى كتاب الصف الثانى وفى درس يعنوان " الفتاة ربة المنزل" [١٤] جاء ما يلى:-

" إنّ سيدة المنزل مكلّفة بأعمال وواجبات لا مندوحة لها عن القيام بها سواء أكانت فقيرة أم غنية ،فعليها أن تتعلّم تلك الواجبات منذ الصغر حتى لا تقصّر فيها فى الكبر".

فأعمال المنزل فى الفقرة السابقة هى تكليف وقدر للمرأة وليست هنالك طريقة للفرار من هذا القدر. ويقرّر الدرس أنّ تلك الأعمال المنزلية هى واجب كل النساء باعتبار جنسهنّ وعلى المرأة أن تتكيف مع هذا الدور وأن توطّن نفسها على القيام به. فالدرس يذكر أنّ التقصير فى القيام بالأعمال المنزلية هو مدعاة للعيب ومرادف له ،هذا مع ملاحظة أنّه لم يرد فى أى درس من الدروس أنّ تقصير المرأة أو جهلها بأى شىء يتعلّق بالحياة العامّة أو تنمية قدراتها المختلفة معيب للمرأة.

ويواصل النّص فى الضرب على نفس نغمة العمل المنزلى كشاغل البنت الوحيد فى قوله :-

"والفتيات النّاجحات هنّ اللاّئى يتربين على حب العمل ويتدرّبن منذ الصغر على الأعمال المنزلية ،والأشغال اليدوية والتمريض وتربية الأطفال ودفع الأسقام عنهم. فإنّ من الخطأ ما كانت تعتقده الأمّهات فى الماضى من أنّ التحدث بتربية الأطفال معيب لدى الفتيات ،كما أنّ من الخطل أن تعتقد أنّ الطبخ غير لازم للفتاة ،فتعلّمن أيتها الفتيات ودرّبن أنفسكنّ على فنون الطبخ وعلى سائر الأشغال المنزلية والواجبات البيتية ،وبذلك توّهلن أنفسكنّ لتصبحن ربّات أسر ومديرات بيوت ".

فالدرس وضع مواصفات واضحة للفتاة النّاجحة التى لا سبيل لنجاح الفتاة إن فارقتها. وهنا يربط الدرس بين قيام البنت بالأعمال المنزلية وتأهيلها للحياة ،فالفتاة المؤهلة ،حسبما يقول الدرس ،هى التى تجيد هذا الدور. ونلاحظ هنا استخدام الدرس لأسلوب قريب جدا من الوعد والوعيد.

كما يشير الدرس فى فقراته الأخرى الى أنّ وقت الفتاة يجب أن يكرّس جلّه للعمل المنزلى وحتى من ترغب فى تجديد النشاط فهى منصوحة بالانتقال من عمل منزلى الى آخر. وإجمالا يمكننا القول بأنّ هذا الدرس يمثل نموذجا سافرا لتكريس كل مفاهيم تخصيص العمل المنزلى للمرأة ،بل يصل الدرس بهذا الأمر الى نهايته بمحاولة الباس هذه المفاهيم ثوب القداسة باعتبارها فرض الطبيعة ، وباعتبار أنّ مخالفتها مخالفة للأحكام العقلية.

وهذه الكتب إذن تهمّش أدوار المرأة الاجتماعية والحياتية الأخرى،وتكرّس مفاهيم غير معاصرة فيما يخص عمل المرأة .فنحن لا نجد درسا من دروس الكتب يحث على عمل المرأة. وفى الدروس تندر بل تختفى نماذج النساء العاملات فى حين تعرّضت هذه الكتب لنماذج مختلفة من الرجال العاملين فى مختلف المهن والأعمال.

ولا تقتصر هذه الكتب على تجاهل ذكر المرأة العاملة وحسب بل تجتهد فى الرّبط بين العمل والرجل باعتبار العمل شيئا يخص نوع الرجال،وهذا واضح جدا فى درس بعنوان "العمل"(١٥) حيث يكتب أديب مشهور خطابا الى ابنه يوصيه فيه بالعمل فيقول:-

"أى بنىّ: أحبّ أن تنشأ رجلا،ولا سبيل الى الرجولة الصحيحة إلاّ بالعمل،فليس رقى الانسانية وتقدّمها إلاّ ثمرة العمل،ولم تشرق شموس

الاختراعات وتظهر إلاّ من أكواخ العمّال".

وهذا الدرس يضع العمل مرادفا للرجولة. ونفس هذه الرسالة هى فى مضمون درس آخر بعنوان "رسالة الى ابنى".(١٦)

وقد استخدمت هذه الكتب الأسلوب التقريرى فى تبيان أنّ مكان المرأة هو البيت وليس العمل وهذا واضح فى درس بعنوان "أوقات الفراغ" حيث ورد ما يلى:(١٧)

"وفى البيت نصف عدد الأمّة من النساء، فكيف يقضين أوقات فراغهنّ ؟ وفى المنازل آلاف من طلبة المدارس ، يقضون نحو أربعة أشهر أو خمسة فى عطلة صيفية. فهل تساءل الآباء: كيف يقضى هذا الوقت الطويل فيما يعود بالنفع على جسومهم وعقولهم؟"

وبالرغم من أنّ المرأة السودانية امرأة عاملة فى مختلف المهن والمجالات لكن ممّا يحيّر أنّ هذا الأمر لا يجد انعكاسا فى هذه الكتب . فالكتب تتجاهل واقع المرأة السودانية ،وشأن هذا أن يخلق تناقضا واضحا فى نفوس التلاميذ والتلميذات الصغار الذين يرون واقع عمل المرأة ومشاركتها الواسعة فى حين تطالبهم هذه الكتب بتصديق غير ذلك الواقع. فالكتب تشكلهم على عدم قبول عمل المرأة أو قبوله كنشاز. فالكتب قد قسّمت الأدوار بين الرجل والمرأة بشكل نهائى. وسيعد التلميذ والتلميذة ، الذين يصدّقون بلاريب الكتاب المدرسى هذا التقسيم مثاليا فى حين سيعدّون النساء العاملات مخفقات فى احتذاء المثال. وسترى الطالبة التى تلقت عن هذه الكتب أن العمل ليس من واجباتها كأنثى. وقد يقود استبطان هذه المفاهيم من قبل المرأة الى مظاهرة خطيرة منها عدم الاهتمام بالعمل حين تلتحق به باعتباره حدثا عابرا فى حياتها.

ولنا أن نتساءل هل تعكس نصوص هذه الكتب دور المرأة الاجتماعى كواقع اجتماعى ؟ بالطبع فدور المرأة كربّة منزل دور ماثل فى حياتنا. ولكن ما نأخذه على هذه الكتب أنّها عميت عن ملاحظة أنّ المرأة قد اقتحمت باب العمل الحديث من واقع فرص التعليم التى أتيحت لها ، ولم تضمّن المنشط الجديد للمرأة فى دروسها حتى يحظى بالشرعية والقبول لأنّ التعليم أداة متقدمة من أدوات التبشير بالتغيير الاجتماعى وتقنينه

الصورة السايكولوجية للمرأة

فى هذا الجزء استعرض بعض النصوص التى حاولت فيها هذه الكتب التركيز على إبراز صورة سايكولوجية محدّدة للمرأة. فهى تتطرّق الى بعض الصفات النفسية بشكل يوحى للتلاميذ والتلميذات بأنّ هذه الصفات صفات خاصّة بالمرأة تتصف بها دون الرجل. ويمكن القول أنّ الصفات التى حاولت هذه الكتب ربطها بالمرأة هى صفات سلبية "الخجل الشديد، الطاعة العمياء، الخضوع، المكر، الأساليب الملتوية، وعدم الوضوح وغيرها. وذلك فى مقابل صفات أخرى يجب أن تتصف بها الشخصية السوية "الثقة بالنفس، الشخصية المستقلّة والوضوح".

وكمثال لهذه الصفات نجد فى درس "البنت التى تساعد أمّها الذى سلف ذكره الأهزوجة التالية :-

يا أمّ انّى مطيعه ... وللكلام سميعه
وكلّ ما شئت منّى ... أقضيه حالا سريعه
فارضى علىّ فإنّى ... يا أمّ بنت مطيعه

وردت صفة "مطيعة" فى هذا النّص أكثر من مرّة وهو ورود تأكيد لهذه الصفة، واستجاب لها فى البنت. وتشديدا على هذه الصفة فقد أردف النّص لفظة "مطيعة" بلفظة أخرى هى "وللكلام سمّيعة"

وفى هذا المقطع رغبة فى تكريس لصفات محدّدة للبنت والمرأة يتماشى مع الفهم الاجتماعى التقليدى السائد، والذى يعبّر عنه بكلمات مثل إنّ البنت "هدية ورضية" كناية عن كونها مطيعة ومنقادة ومأمونة من أن تكون مصدر خلاف فى الرأى.

بالاضافة لصفة الطاعة التى ذكرها الدرس نجد أيضا تركيزا على صفات أخرى مثل صفة "كثرة الحياء والخجل" وهذا واضح فى درس "ابنتى العزيزة" الذى أشرنا اليه سابقا. "فكثرة الحياء" من الصفات التى تواضعت هذه الكتب على الصاقها بالمرأة. وبرغم أنّ الحياء صفة مستحبّة للجنسين إلاّ أنّها ترد فى هذه الكتب مرتبطة بالبنت فقط باعتبارها صفة أنثوية، وهو ورود يشعر التلميذة الصغيرة بضرورة التمثيل واصطناع التمسّك بهذه الصفة. ومن الجانب الآخر تعج هذه الكتب بدروس تمجّد صفة "الجرأة" فى الأولاد مثال ذلك درس "فصاحة غلام" استحقت العطاء". (١٨)

استمرارا لنهج هذه الكتب فى صب الفتاة الصغيرة داخل قالب نفسى محدّد لا تحيد عنه ،ونموذج معدّا لها سلفا ،نجدها تربط بين البنت وصفة الهدوء والاتزان. وهذه الصفات ممّا يراد بها الى اعتقال حركة الفتاة الجسمانية والنفسية فى ضوابط معلومة لا محيد عنها ولا محيص .

ونجد فى هذه الكتب صفات أخرى للمرأة أدنى للشر. ورد أنّ المرأة داهية مكارة. فقد وردت قصّة عن مثل عربى على هذا النحو(١٩)

"ولهذا المثل قصّة : لقد قالته فتاة عربية تسمّى "زنوبيا" كان والدها أميرا من أمراء العراق قتله جار له ،يسمّى "جزيمة الأبرش" أو "جزيمة الوضاح" لأنّ بوجهه برصا ،والعرب يكرهون أن ينادوا أحدهم بما يكره. فحزنت "زنوبيا" على أبيها حزنا شديدا ،وأصرّت على أن تستخدم سلاح المرأة وهو الدهاء والحيلة تستعين بهما على الأخذ بثأر أبيها من قاتله "جزيمة ....."

ورد فى النّص أنّ زنوبيا قرّرت أن تستخدم سلاح المرأة وهو الدّهاء والحيلة. وقد استعمل النّص لبيان هذا السلاح الأسلوب التقريرى الذى لا يدع مجالا للشك بأنّ سلاح المرأة حقا هو الدّهاء والحيلة. ويجعل أسلوب التقرير الحقيقة تستقر فى ذهن التلميذ والتلميذة كأمر وحقيقة من حقائق الاجتماع. فالمرأة ،بحسب هذا النّص لا قدرة لها على حل المشاكل بموضوعية ،لهذا تلجأ للحيلة والمكر والطرق الملتوية. ولا يخلو هذا من اتهام للمرأة بالنقص حيث المكر والدّهاء والحيلة هى صفات الضعيف . وهذا من باب الفكر الشائع عن أنّ المرأة تستمد صفاتها من الشيطان.

يلاحظ كذلك أنّ هذه الدروس أيضا تضع الولد فى دائرة الفعل والعمل والنشاط المستمر الذى يتجسّد فى نشاط الشخصيات التى تمثل الصبيان،فى حين أنّ أدوار البنات منكمشة وقليلة. فكتابى الأول الذى يدرّس بالصف الأول الابتدائى،يحتوى على خمسة وثلاثين درسا جاءت سبعة دروس منها بأسماء شخصيات "أولاد" ومن ذلك "سعد سأل"،"سعد غرق" "شرف والأسد" وغيرها من الدروس . ويعطى هذا الأداء التربوى شخصية الولد حرّية فى الحركة والفعل ويضعها فى دائرة المبادرة بينما تنزوى شخصية البنت ولا تظهر إلا فى أدوار قليلة. ولمزيد من تكريس

الصفات السلبية وروح الخضوع فى الفتاة نجد أنّ هذه الكتب قد قصرت الخطاب فى قضايا معينة ،وهى القضايا التى تتحدث عن الوطن، والدفاع عنه ،للتلميذ دون التلميذة. ومثال ذلك درس بعنون " فى سبيل الوطن"(٢٠)حيث جاء ما يلى:-

ما أشرفها ميتة أن يخرّ الرجل صريعا فى الصفوف الأولى فى المعركة وهو يقاتل مستميتا فى الدفاع عن أرض الوطن ....."

فالدفاع عن أرض الوطن ربط هنا بشكل ظاهر ومباشر بالرجال.

وجاء فى درس آخر بعنوان "وطنى"(٢١)ما يلى:-

"نحن نحبّ بلادنا ،لأنّنا نعيش فيها ونأكل من خيراتها ونشرب من مائها ونتمتع بشمسها وهوائها ،وعلى أرضها نكبر ونصير رجالا نافعين".

فالدرس يربط بين النفع والرجال وكأنّما الرجال فقط هم الذين ينفعون بلادهم. وكان يمكن للدرس أن يقول "نصير رجالا نافعين ونساء نافعات" ومن هذا الباب أيضا قصرت هذه الكتب الطموح والأعمال العظيمة على الرجال. ففى درس " النفس العالية "(٢٢)نجد الآتى:-

" فيا طالب العلم: كن عالى الهمّة ،ولا يكن نظرك فى تاريخ عظماء الرجال نظرا يبعث فى قلبك الرّهبة والهيبة ،فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصّة من قصص الحروب أو خرافة من خرافات الجان".

فالنّص لا يخاطب الطالبة ولا يذكر أنّ الأعمال العظيمة هى من صنع الرجال والنساء المجتهدات.

ويترسخ فهم قصر الطموح والأعمال العظيمة على الأولاد فى درسين آخرين بعنوان "طريق النجاح"(٢٣)و"البطولة"(٢٤). ولاشك فى أنّ هذه الدروس تشبّت فى ذهن التلميذ والتلميذة المفاهيم الخاطئة حول دونية المرأة وتفوّق الرجل عليها.وفى سياق نفس نهج هذه الكتب فى التحيّز للأولاد فإنّنا نجد أنّ كثيرا من الدروس اهتمّت بسير الرجال على حساب سير النساء. فقد حفلت هذه الكتب بسير علماء وفنّانين ومناضلين من التاريخ إلاّ أنّنا نلاحظ قلّة أو ندرة سير النساء سواء كنّ عالمات أو فنّانات أو مناضلات (أنظر الجدول رقم ١). وعندما جاء ذكر لسيرة هؤلاء النّساء ربطت عظمتهنّ بكونهنّ أمّهات أو زوجات وليس

بمواقفهنّ الشخصية. ففى درس بعنوان "الخالدات العظيمات"(٢٥) جاء التالى:-

"وأى خلد يحفظه التاريخ،وتتناقله الأجيال،ويجرى به ركب الزمن،وتدّخره الأيام ذخيرة تهديها الى الأبناء والأحفاد -أعظم من سيرة عطرة تتحدّث عن أم رءوم حبّبت الى ابنائها البذل والجهاد والاستشهاد فى سبيل الوطن،وزوج عطوف ..... عاونت زوجها فيما تعرّض له من محنة ،وما صادف من عقبات ،وما تألّب عليه من أعداء وأحداث ، فعالجت بتعاونها مشكلات العيش والنفس جميعا ،وأخت ودود مضت الى الكفاح مع أخيها مجاهدة تشدّ الأزر وترد الكيد،وتحمى الظهر وتوّدى الخدمات ،وبنت حنون حملت فى محنة الأهل نصيبا فوق ما يؤّهلها له سنّها واستعدادها....".فعظمة المرأة وخلدها الذى يحفظه لها التاريخ هو أن تكون أمّا أو زوجة أو أختا تشدّ الأزر فقط . فالمرأة هنا لا مكان لها ولمساهمتها كشخصية مستقلّة ،فهى فى الأدوار الثلاثة تلعب دور الشخص المنفعل لا الفاعل.

المنهج يناقض القيم البرنامجية للدين والدولة

هنالك درسان برنامجيان عن المرأة تتناقضان مع التوجه العام لدروس هذه الكتب حول المرأة.فبينما تحدثت دروس هذه الكتب عن النضال من أجل الوطن باعتباره عملا ذكوريا ورجوليا نجد درسا بعنوان "المرأة فى ظل ثورة مايو الاشتراكية- من خطاب الرئيس القائد فى المؤتمر التأسيسى لاتحاد نساء السودان"(٢٦) يدعو الى مشاركة المرأة السياسية ونضالها حيث خاطب الدرس النساء السودانيات قائلا:-

"أريدكنّ مشاركات فى العمل الوطنى التقدمى الذى فجّرته ثورة مايو الظافرة الظافرة. أريدكنّ مناضلات من أجل السودان ووحدته وحرّيته وليكن اتحادكنّ سلاحا لتحقيق كل هذا،وليبارك الله لكنّ فى هذا العمل. كما تحدّث درس آخر بعنوان "مكانة المرأة الروحية فى الاسلام"(٢٧) عن دور المرأة الروحى حيث ورد ما يلى:-

"فى كل هذا دليل على أنّ مجال الوحى والالهام يستوى النساء فيه والرجال،فلا عائق يعوق المرأة عن أن تسمو بروحها أقصى غايات السّمو"

وغير خاف أنّ هذين الدرسين تحدّثا عن المرأة حديثا لا يتسق مع ما جاء عن المرأة فى بقية دروس هذه الكتب . فالمرأة فى الدروس الأخرى إمّا مقيدة الى الطبخ والنظافة والبيت قيدا لا فكاك منه أو موصوفة بالمكر والدهاء والحيلة وغيرها من صفات الضعف بينما تحدّث هذان الدرسان عن نضال المرأة وسموّها الروحى. ولا جدال فى أنّ السمو الروحى درجة رفيعة لا مكان لها فى إعراب الضعف والمكر والحيلة . كما أنّ للنضال السياسى الذى دعا له أحد هذين الدرسين ساحات أوسع من حدود المنزل المعروفة .

وواضح من هذا أنّ أكثر دروس كتب المطالعة تناقض فى صورتها الدرسين الرنامجيين حول مكانة (المرأة الروحية فى الاسلام) أو (المرأة فى ظل ثورة مايو الاشتراكية) ممّا يعنى أنّ هذه الدروس البرنامجية لم تتغلغل فى روح ومنهج هذه الكتب ككل. ولم تظهر المفاهيم التى وردت فيها حول نضال المرأة أو سموّها الروحى مبثوثة أو منثورة فى بقية الدروس التى التزمت التزاما صارما بالصورة التقليدية للمرأة المرهونة بأداء الأعمال البيتية والقانعة بالأدوار الثانوية فى الحياة .

تحيّز الصور أيضا

صاحبت بعض دروس هذه الكتب صور ورسومات . وقد استخدمت هذه الصور بكثافة خاصّة فى كتب الفصول الصغرى. ومن المعروف أنّ الصور تخدم أهدافا محدّدة وغالبا ما تكون الصورة أبلغ من الحديث خاصّة فى الفصول الصغرى حيث ترتبط الكلمة مع الصورة ارتباطا مباشرا، تشوّق الطالب وتوضح له موضوع درسه وتقرّبه له . وفى سياق موضوع الدراسة نجد أنّ هذه الكتب قد استخدمت فى أغلب الأحيان صورا تعكس نظرة موازية للنظرة التى جاءت فى دروس هذه الكتب حول المرأة . فجاءت أغلب صور المرأة وهى داخل البيت أو وهى تؤدى أعمالا منزلية (أنظر الصورة رقم ١، ٢) وحتى عند الحديث عن الصابون كموضوع علمى نجد الصورة المصاحبة له صورة فتاة تغسل (أنظر الصورة رقم ٣) ولا نجد صورة لامرأة فى معمل أو مصنع أو بجوار آلات زراعية أو هندسية كما تختفى صورة المرأة عند الحديث عن الرياضة مثلا. أمّا بالنسبة لأغلفة هذه الكتب نفسها فنجد أنّ بعضها قد جاء يحمل صورا لأولاد فقط

(أنظر الصورة رقم ٤). وتقل فى هذه الكتب أيضا الصور التى تعكس نشاطات مشتركة بين البنات الأولاد. وليس خافيا أنّ لهذه الصور دور هام فى تعميق الاحساس بالمساواة والمشاركة لدى التلاميذ والتلميذات والتأكيد على هذه القيمة.

خاتمة

تعكس النماذج والنصوص التى أخذناها عن كتب المطالعة تصوّر هذه الكتب لدور المرأة ومشاركتها الانسانية والحياتية. وهو تصوّر يمكن وصفه بأنّه قاصر ومجاف لتوجيهات التربية الحديثة، فالكتب فى موضوعاتها وصورها التوضيحية توحى للتلميذ والتلميذة بأنّ المرأة غير قادرة على القيام بمهام رئيسية فى الحياة كالتربية والعمل والاختراع والقيادة لأنّها إمّا مهتمّة بالشكل والشكليات أو لا شغل لها غير تنفيذ الأعمال المنزلية. ولأنّ هذه المفاهيم تتسرّب الى تلاميذ وتلميذات هم ناشئة الأمّة ومستقبلها وجب أن نقف على خطر هذه المفاهيم على مستقبل المرأة السودانية وحرياتها، ومستقبل الانسان السودانى.

ممّا يعمّق حسّنا بخطر ما نحن بصدده أنّ موضوع البحث هى كتب المرحلة الابتدائية والمتوسطة، أى مرحلة التعليم الأساسى التى ينقطع عدد كبير من التلاميذ بعدها عن الدراسة المنتظمة. فاذا كانت رسالة التعليم والمناهج هى تغيير الانسان السودانى نحو الأفضل فلا بدّ أن نتساءل كيف يتسنّى هذا التغيير، وكيف تتسنّى إمكانية خلق علاقات انسانية أكثر تطوّرا بين الرجل والمرأة، من جيل تشرّب بما جاء فى هذه الكتب حول المرأة ؟

جدول رقم (١)

يوضح عدد الدروس مقارنة بسير الشخصيات النسائية والرجالية التى وردت فيها

الكتاب	عدد الدروس	سير شخصيات رجالية	سير شخصيات نسائية
المطالعة الابتدائية الصف الخامس	٣٧	٥	–
القراءة العربية الصف الأول المرحلة المتوسطة	٣٨	٥	–
المطالعة الابتدائية الصف السادس	٢٧	٥	–
القراءة العربية الصف الثالث المرحلة المتوسطة	٣١	٢	١

صورة لفتاة تعمل فى مطعم منزلـــى حديث

صورة لفتاة بالزي السوداني

الصَّـــابُونُ

يُطَهِّرُ الأَيْدِي وَالفائدة

جمهورية السودان
وزارة التربية والتعليم

المطالعة الابتدائية

للصف الخامس الابتدائي

(١) عون الشريف قاسم وموقف الحمدانى،كتب المطالعة فى المدارس الأولية فى السودان (الخرطوم ١٩٦٩) صفحة ٧

(٢) المرشد العربى الأول للصفين الأول والثانى الابتدائى (الخرطوم ١٩٨٢)،صفحة ٥

(٣) قاسم والحمدانى،كتب المطالعة،صفحة ٩

(٤) حاجة كاشف، الحركة النسائية فى السودان (الخرطوم ١٩٨٤) صفحة ١٥

(٥) محمد عمر بشير،تاريخ وتطوّر التعليم فى السودان ١٨٩٨-١٩٥٦ ترجمة هنرى رياض وآخرين، (بيروت ١٩٨٣)،صفحة ١٠١

(٦) Zein El-Bakri and El-Wathig Kameir, "Aspects of the Women Political Participation in Sudan," International Social Science Journal, forthcoming

(٧) نفسه،صفحة ٦١١

(٨) كاشف ، الحركة النسائية،صفحات ٣١-٤٠

(٩) المطالعة الابتدائية- الصف الثانى - الجزء الثانى (الخرطوم ١٩٨٩)، صفحة ٥٢

(١٠) المطالعة الابتدائية ، الصف الخامس الابتدائى (الخرطوم ١٩٨٧)، صفحة ١١٦

(١١) نفسه،صفحة ٦٤

(١٢) كتابى الأول -الصف الأول الابتدائى - (الخرطوم ١٩٨٠)صفحة ٥٥

(١٣) المطالعة الابتدائية -الجزء الثانى -الصفالثالث الابتدائى (الخرطوم ١٩٨٧)،صفحة ٢٣

(١٤) القراءة العربية ، الصف الثانى -المرحلة المتوسطة (الخرطوم١٩٨٨) صفحات ٨٣ - ٨٤

(١٥) المطالعة الابتدائية ، الصف السادس الابتدائى (الخرطوم١٩٨٧)، صفحة ١٠١

(١٦) نفسه،صفحة ٢١

(١٧) القراءة العربية- الصف الثالث - المرحلة المتوسطة (الخرطوم ١٩٨١)،صفحة ٣٢

(١٨) المطالعة الابتدائية - الصف السادس الابتدائى،صفحة ٤٩

(١٩) القراءة العربية ، الصف الثانى، المرحلة المتوسطة ،صفحة ٨٧

(٢٠) القراءة العربية ، الصف الأول، المرحلة المتوسطة (الخرطوم ١٩٧٢) صفحة ٩٢

(٢١) المطالعة الابتدائية ، الجزء الثانى، الصف الثانى الابتدائى صفحة ٦٧

(٢٢) القراءة العربية ، الصف الثانى، المرحلة المتوسطة ،صفحة ٩١

(٢٣) القراءة العربية ، الصف الثالث ، الصف الثالث ، المرحلة المتوسطة ،صفحة ٥

(٢٤) القراءة العربية ، الصف الثانى، المرحلة المتوسطة ،صفحة ٥٥

(٢٥) نفسه ، صفحة ١٩

(٢٦) القراءة العربية ، الصف الثالث ، المرحلة المتوسطة ،صفحة ١٢
ووجدت هذا الدرس قد حذف من طبعة سنة ١٩٨٧ للكتاب وهذا أثر من سقوط دولة نميرى بانتفاضة ١٩٨٥ كما لا يخفى.

(٢٧) القراءة العربية ، الصف الثانى، المرحلة المتوسطة ،صفحة ٦٠